

النهضة العربية

في العصر الحاضر

شكيب أرسلان

النهضة العربية

في العصر الحاضر

تأليف
شكيب أرسلان



النهضة العربية

شكيب أرسلان

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ١٩٤٥ ٥

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٠.

المحتويات

كلمة	٧
تمهيد	٩
محمد علي الكبير مؤسس النهضة	١١
الصحافة	١٣
المدارس في العالم العربي	٢٥
المجمع العلمي في دمشق ومصر	٢٧
أثر الزيتونة والقرويين والأموي	٢٩
النهضة العلمية والدعوة الوهابية	٣١
النهضة العلمية في اليمن	٣٣
الشعر والشعراء	٣٥
الفقه الإسلامي وعلماء الدين	٣٩
الطب والأطباء والصيدلة	٤١
منافسة سوريا للبلاد العربية	٤٣
لماذا تأخر الشرق الأدنى عن الأقصى؟	٤٥
الصحافة في طرابلس الغرب	٤٧
جولة في مدارس اليمن	٤٩

كلمة

ألقى عطوفة أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في شهر أكتوبر — تشرين الأول — سنة ١٩٣٧ محاضرة ممتعة في دار المجمع العلمي العربي بدمشق، تحدث فيها عن نهضة العرب الحاضرة من النواحي العلمية والأدبية والصحافية، ثم تكرم فاختص بها جريدة الجزيرة فنشرتها تباعًا في أعداد مختلفة.

وقد رأينا نزولًا عند رغبة وإلحاح الكثيرين من المعجبين بهذه المحاضرة أن نضم شتاتها، ونؤلف بينها، فجمعناها كلها في هذا الكراس حتى يقرب تناولها وتسهل مطالعتها ويتيسر حفظها.

والمحاضرة على العموم تنطوي على معلومات وافية ووصف دقيق لليقظة الفكرية التي دبت في نفوس العرب، وأخذت تعدهم للعمل العظيم الذي خُلِقوا له؛ فيجدر بكل عربي أن يعكف على تلاوتها ويتفهم أغراضها، وعلى الله قصد السبيل.

محمد تيسير ظبيان الكيلاني
منشئ جريدة الجزيرة بدمشق

تمهيد

لقد تكلمنا منذ أيام في النادي العربي عن نهضة العرب السياسية، وسيرهم في طريق الاتحاد فيما بينهم؛ اقتداءً بغيرهم من الأمم اللائي كن مفككات مبعثرات، فما زلن يسعين في الانضمام إلى أن أصبحن كتلةً واحدةً. ونحن نتكلم الآن عن نهضة العرب العلمية التي هي في الواقع أساس النهضة السياسية مختارين لهذه المحاضرة مكان المجمع العلمي الذي هو المنبر الطبيعي للمباحث العلمية، كما اخترنا النادي العربي منبرًا للكلام عن الوحدة العربية التي هي من مباحثه. وإنما كان الفرق بين البحثين أن الواحد منهما سياسي صرف لا يجوز الخوض فيه إلا بالمقدار الذي تسمح به المصلحة، وأن الآخر علمي بحت يقدر أن يستقصي فيه الباحث ما شاء دون أن يتعرض لمحذور أو يعرض أمته لضرر.

وبهذه المناسبة أعلن أني آسف — بل جد آسف — من أن أرى بعض إخواننا معتقدين أن الإنسان إذا حاضر في باب السياسة وجب عليه أن يفرغ جعبته من أولها إلى آخرها، وأن يجهر بكل ما يدور في خلده كما لو حاضر في باب العلم؛ فهذا لا شك مذهب من يسميه الإفرنج «بالولد الهائل» ومن ليس في الواقع جديرًا بأن يطرق باب السياسية أصلًا، بل بين هذا والسياسة ما بين المشرق والمغرب.

فنحن لا نرضى أن نكون من الأطفال الهائلين ولا من الذين لا يعرفون إلى أين يذهب الكلم، بل نحن ولله الحمد من أمة اشتهرت بالمرونة والدهاء وسرعة اللحظ، وقد جاء في أمثالها: اللبيب من الإشارة يفهم. ولقد كان هاديها الأعظم ﷺ إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، ومنا الذي يقول:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة يُضرَّس بأنياب ويُوطَأ بمنْسَمِ

وقائل هذا البيت هو الذي قال فيه سيدنا عمر — رضي الله عنه — أنه أشعر العرب؛ لقوله: وَمَنْ وَمَنْ. ثم أبدأ بالكلام عن نهضة العرب العلمية، فأقول: منذ عشر سنوات — أي: سنة ١٩٢٧ — اقترح على الطيب الذكر الأستاذ يعقوب صروف صاحب محلة المقتطف التي انتهت إليها رئاسة المجلات العلمية، أن أكتب إلى المقتطف شيئًا في موضوع النهضة الشرقية في هذه الخمسين سنة الأخيرة؛ فكتبت يومئذ فصلًا ظهر في أجزاء المقتطف من تلك السنة وراق العلامة المشار إليه كثيرًا، وقد بدأته بما يلي:

> لا حاجة بنا إلى القول بأن أجلى مجاليْ هذه النهضة كان في العلم والتعليم. وعندي أنه لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية، فإذا وُجِدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية، وعسكرية، واجتماعية، واقتصادية ... إلخ، آخذًا بعضها برقاب بعض. فإذا قلنا: إن الشرق الأدنى نهض نهضةً علميةً كُفِينا تعداد سائر مظاهر نهوضه ومعارج رقية؛ لأن العلم وحده هو المفتاح، وبه وحده الدخول إلى داخل البناء، وكل نهضة لا يكون ظهرها العلم، فما هي إلا ساعة وتَضْمَحِلُّ، وقد يُقال: إن نهضة شرقنا هذه ضئيلة لا تستحق أن تُذكَر بالقياس إلى معالي الأمم الراقية، وإننا لا نبرح متخلفين بمساوف شاسعة عن أمد أوروبا وأميركا واليابان، فلماذا نشغل أنفسنا بما لا يشغل حيزًا في التاريخ العام؟! وعلى هذا نجاوب أنه ليس العلم متعلقًا بالكمال وحده ولا البحث موقوفًا دائمًا على ما بهر النُّهى وبلغ سدرة المنتهى، وإنما العلم هو ما تناول الدرجات كلها الدنيا منها والقصوى، والبحث هو الذي به تُوزَن مقادير الأشياء وتُحدَّد نسبة بعضها إلى بعض ونسبتها إلى الوقت. ثم إننا إذا تحرينا الحقيقة وجدنا الشرق العربي قد اجتاز في هذه الخمسين سنة في طريق العلم والحضارة الحديثة ما لم يتهيأ لأوروبا أن تجتازه قبلًا في أطول جدًّا من هذا الردح من الدهر؛ وذلك أنه من الطبيعي أن يسهل على المتأخر ما لا يسهل على المتقدم؛ لأن المتقدم قد يُضطَر أن يُمهِّد الطريق ويسير، وأما المتأخر فما عليه إلا أن يلحقه ويسير على طريق مُذلَّل أمامه.

محمد علي الكبير مؤسس النهضة

فالنهضة الشرقية العربية — نسميها بالعربية إخراجًا لما سواها من نهضات الشرق كنهضة اليابان والصين في الشرق الأقصى، ونهضة فارس والأفغان والهند في الشرق الأوسط، ونهضة الترك في الشرق الأدنى بحذائنا — قد بدأت في الواقع منذ أكثر من مائة سنة لعهد محمد علي عزيز مصر، فهو أول من لحظ الخطر الحائق بالشرق من جراء جموده على أساليب العمران القديمة، وجعل نصب عينه حُدَيًّا الغرب في أساليبه الجديدة، حتى يتأتى للشرق أن يقاتل الغرب بسلاحه ويدفعه عنه ويستقل بنفسه؛ إذ كانت سُنَّة الله منذ وُجِد العمران على سطح هذه الكُرَة، إنه كلما تقوَّى جانبٌ منها سطا على الآخر واجتاحه وضرب عليه الذلة والمسكنة.

فمحمد علي هو المؤسس الحقيقي لهذه النهضة الشرقية العربية ليس بوادي النيل فحسب، بل في البلاد التي تجاور هذا الوادي المبارك وفي مقدمتها سوريا، وأول ما استنشق السوريون ريح الحضارة الحديثة، إنما كان في زمن محمد علي وفي زمن غزاة ولده إبراهيم باشا للشام، ثم انكفأ إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٨٤٠، وبقيت في سوريا آثار الانتباه ونزعة التجدد، وجد السوريون لا سيما أهل الساحل منهم ينشدون أسباب المدنية الغربية؛ لما رأوا فيها من القوة والرفاهية. وأنس المرسلون الأمريكيون هذا الاستعداد في أهل سوريا، فأسسوا في بيروت كليتهم الشهيرة التي كانت النبراس الأول التي استضاءت به سوريا، ولا يزال هذا النبراس يزهر في آفاق الشرق إلى يومنا هذا. ورأت أمم أخرى — كالفرنسيين والألمان والطليان والروس — أن أرض سوريا قابلة جدًّا لبذور المعارف؛ فبثوا فيها المدارس والكتاتيب، وكل ذلك كان يبدأ في بيروت ثغر الشام البسام. ففي بيروت — والحق يُقال — ابتزغ زرع العلم العصري وأخرج شطأه، ثم انبث في جميع الشامات، ثم فيما جاورها واستغلظ واستوى على سوقه يُعجِب حتى الزُّرَّاع الأوروبيين أنفسهم، واضطرت

الدولة العثمانية أن تفتح المكاتب الرشدية والإعدادية في سوريا، وأن تقبل كثيرين من شبانها في مكاتبها العالية في القسطنطينية، فتخرج فيها ألوف من الناشئة منهم من تقلدوا مناصب ملكية أو عدلية، ومنهم من تعاطوا مهنة المحاماة ومنهم أطباء وصيادلة ومنهم ضباط نبغوا في الفنون العسكرية. وامتازوا بين الأقران من ضباط العرب في العراق وسوريا واليمن كلهم ممن تخرج في مكتب بانغالدي في الآستانة، وقد يزيدون على ثلاثة آلاف ضابط فيما يقال.

ومع أن النهضة العلمية في مصر لم يكن الأصل فيها لا الكلية الأميركية ولا الكلية اليسوعية في بيروت ولا مكاتب الدولة في الآستانة، لا يُنْكَر أن مصر كانت ميدانًا لجياد القرائح السورية، وأن أنبغ الذين تخرجوا في بيروت إنما ظهروا واشتهروا وتعلقت قناديلهم بمصر، هذا كما أن لمصر على الشام فضل تخريج عدد لا يُحصَر من أبناء هذه في العلوم اللغوية والشرعية بالجامع الأزهر، وتخريج عدد كبير من أطباء سوريا بالقصر العيني. فما زال كل من القطرين المصري والشامي يشد الواحد منهما الآخر في كل ضرب من ضروب الرقي العقلي، وقلما جد في أحدهما شيء إلا سمعت رجع صداه في الآخر. على أن النهضة الشرقية العربية وإن كان قد ذرأ قرنها منذ قرن فأكثر لم تسر هذا السير الحثيث إلا في الخمسين سنة الأخيرة التي شهدها كاتب هذه الأحرف بجميع صفحاتها؛ وذلك لأني بدأت بالكتابة في الصحف وبمرافقة الحركة العملية في سيرها منذ ٥٢ سنة متوالية، فلي الحق إذن بأن أدَّعي معرفة تاريخ هذه النهضة وما دخلت فيه من التطورات على قدر ما يستطيع خادم أمين للعلم زاول عمله في مكافحة الجهل طوال مدة خمسين سنة دون أن يتخلف يومًا واحدًا.

الصحافة

لا نزاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة بما أثارته من الحركة الفكرية، ونقلت من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم. وقد كان بحسب معلوماتي، وربما أكون مخطئًا في بعضها أول جريدة عربية صدرت في الشرق جريدة الوقائع المصرية بعهد محمد علي، ولكن بقيت سوريا مدة طويلة لا تصدر فيها جريدة.

ويُقال إن أول جريدة صدرت في بلادنا هي جريدة «حديقة الأخبار»، أنشأها خليل أفندي الخوري من شعراء لبنان في وقته، وذلك سنة ١٧٦٠، ثم أصدر المعلم بطرس البستاني الشهير نشرات وطنية في بيروت لذلك العهد، ولم يلبث أن نشر جريدة أسبوعية باسم الجنة، ثم جريدة يومية باسم الجنينة، ثم مجلة شهرية باسم الجنان، وقد التزم هذه المادة في التسمية لمناسبتها مع اسمه «البستاني»، وكان اليسوعيون قد أصدروا في بيروت جريدة باسم البشير تغلب عليها المباحث الدينية الكاثوليكية، ثم أصدر القس لويس الصابونجي جريدة النحلة.

وأصدر غيره جريدة اسمها النجاح، وأصدر الأمريكيون جريدة اسمها النشرة الأسبوعية، ثم تحرك المسلمون فأصدروا جريدة سموها ثمرات الفنون، وكانت تصدر بإدارة الشيخ عبد القادر القباني، وقد تولى تحريرها في البداية العلامة الشيخ يوسف الأسير، ثم خلفه عليها العلامة الشيخ إبراهيم الأحدب الطرابلسي، وهذا كله كان بين ١٨٦٠ و١٨٨٠ أي في مدة عشرين سنة، فوُجِدت في بيروت في ذلك العهد عدة مطابع، وصارت تُطبَع الكتب العربية بعد أن كان طبع الكتب العربية منحصرًا في مطبعة بولاق المصرية وغيرها من مطابع مصر، وكانت قد صدرت في الآستانة في أثناء حرب القريم سنة ١٨٥٥جريدة مرآة الأحوال، وذلك بأمر الدولة وتولى تحريرها رزق الله حسون الكاتب

الشهير، وقد وقعت إليَّ عدة نسخ كانت باقية عندنا من تلك الجريدة فيها أخبار حرب القريم وغيرها من الأخبار.

ومما أتذكره أنه كان عند ذكر خديوي مصر يلقبه بسعادة عزيز مصر، وأظن أن جريدة مرآة الأحوال هذه هي الجريدة العربية الثانية بعد تقويم الوقائع المصرية، وقد بقيت تصدر في عاصمة السلطنة العثمانية عدة سنوات إلى أن فر رزق الله حسون من الآستانة إلى أوروبا على أثر حادثة جرت معه، وقيل فيها إنه اختلس مالًا للدولة فَلاذَ بالفرار وكان أحمد فارس الشدياق في باريس، فقدم إلى الآستانة وأنشأ جريدة «الجوائب» المشهورة، فكانت في وقتها أشهر جريدة عربية في العالم، وكان لها مشتركون في جميع الأقطار الإسلامية؛ نظرًا لبراعة كاتبها أحمد فارس المعدود من أكبر كتاب القرون الأخيرة، وأما رزق الله حسون فبعد أن فر إلى أوروبا نشر كتابًا تحت عنوان «النفثات» نال فيه من الدولة العثمانية، ومن صاحب الجوائب، فأشار هذا إلى كتاب النفثات بقوله: «كان حسون لصًّا وله سرقات؛ فلينقلب صلًّا وله نفثات.» وأظنني غير مخطئ إذا قلت: إنه لذلك العهد أو بعده بقليل ظهرت جريدة في تونس اسمها «الرائد التونسي» وظهرت جريدة أخرى في مصر باسم وادي النيل، وربما يكون قد صدر في مصر جرائد أخرى لم أسمع بها.

ولست محاولًا في هذه العجالة الإحاطة بأسماء جميع الجرائد العربية التي صدرت وتواريخ صدورها، وإنما أنا أذكر الآن أشهرها على سبيل التمثيل، وأقول: إنه لما انتشرت جريدة الجوائب بمكان أحمد فارس من علم اللغة وبراعة الإنشاء وسعة المدارك، كانت عاملًا قويًّا من عوامل النهضة العربية الأدبية، وصار صاحبها يطبع في الآستانة من نفائس الكتب العربية التي كانت مجهولة، والتي اطلع عليها في خزائن كتب القسطنطينية ما أُعجِب به العالم العربي كله لا سيما أنه نشرها بالطبع الجميل.

وربما كانت خدمته للثقافة العربية بهذه المطبوعات في الدرجة الثانية عن خدمة مطبعة بولاق، وإني قد أدركت، وأنا ابن ثلاث عشرة سنة أو أربع عشرة سنة عهد أحمد فارس في أواخر عمره وكان لا يزال، وقد بلغ من الكبر عتيًّا، يخدم هذه اللغة الشريفة التي كان من أعلامها، ومن شاء أن يعلم مدى براعة أحمد فارس ومبلغ بلائه في سبيل اللغة العربية والوطن العربي، فليراجع مجموعة كنز الرغائب في منتخبات الجوائب؛ فهي كتاب يحتوي على سبعة مجلدات لا يمكن أن يستغني عنه من أراد الاطلاع على الحركة العلمية العربية، والحركة السياسية العالمية بين ١٧٦٠–١٨٨٠.

الحركة العلمية

ولنعد إلى سير الحركة العلمية في سوريا فنقول: إنه إلى حد سنة ١٨٨٠ كانت الجرائد منحصرة في بيروت لا تتعداها إلى غيرها من مدن سورية، ولم يكن في دمشق سوى جريدة رسمية للولاية باسم «سوريا»، وبعد ذلك بكثير أصدر مصطفى واصف جريدة اسمها «الشام»، وبعده أصدر الأستاذ كرد علي جريدة سياسية في دمشق اسمها «المقتبس»، وكذلك كانت جريدة رسمية لولاية حلب باسم «الفرات». وكل من جريدتي سوريا والفرات كان نصفها بالتركي والنصف الآخر بالعربي، وقلما كانت تنشر شيئًا خارجًا عن الأخبار الرسمية، وكانت في بغداد جريدة رسمية اسمها «الزوراء» على هذا النمط أيضًا، وأما بيروت فكانت لا تزال على تقدمها في طريق العلم والعرفان. وأول مدرسة داخلية في بيروت كانت المدرسة الوطنية التي أسسها المعلم بطرس البستاني، ثم أخذت كل طائفة من الطوائف المختلفة التي في ساحل سوريا تؤسس مدرسة داخلية في بيروت، فكان للروم الكاثوليك مدرسة يُقال لها: «البطريركية» وللموارنة مدرسة يقال لها: «الحكمة». وللمسلمين مدرسة يقال لها: المدرسة «السلطانية». تولى إدارتها مدة من الزمن العلامة الشيخ حسين الجسر الطرابلسي صاحب الرسالة الحميدية في التأليف بين العلم والدين، وكان اليهود أيضًا أسسوا مدرسة داخلية باسم المدرسة الإسرائيلية كان يديرها زاكي كوهين.

وكان اليسوعيون قد أنشئوا الكلية «اليسوعية» مناظرة للكلية الأمريكية، وكان في لبنان مدرسة فرنسية في كسروان، يقال لها: مدرسة عينطورة. انتفع منها كثير ممن اشتهروا في إتقان اللغة الفرنسية، ثم شرع أساقفة الموارنة يؤسسون مدارس لأبناء طائفتهم، فكانت مدرسة «قرنة شهوان»، ومدرسة «غزير» لبني زوين، ومدارس أخرى متعددة. وقد كان للموارنة من قبل هذه مدارس قديمة إكليريكية؛ مثل: مدرسة عين ورقة، ومدرسة مار عبدا هرهريا، ومدرسة مار يوحنا مارون. وكان للكاثوليك مدرسة في الشوير. وقد اطلعتُ على مطبوعات قديمة ترجع إلى مائة سنة أو أكثر، جرى طبعها في كسروان بمطابع للموارنة منها مطبعة دير سبدة طاميش، وكان الموارنة من القديم يطبعون بالعربية والسريانية.

ولا يجوز أن ننسى المدرسة التي قام بإنشائها الأمير ملحم أرسلان بمساعدة سعيد بك تلحوق لطائفة الدروز في قرية عبية، فقد كانت من أقدم مدارس لبنان يرجع تأسيسها إلى سنة ١٨٦٢.

وكانت تقبل الطلبة مجانًا لاعتمادها في نفقاتها على الأوقاف التي ألحقها بها الأمير المشار إليه، ولما تولى قائمقامية ابن عمه الأمير مصطفى زاد الاعتناء بها، وانتدب لها من الأساتذة مثل العلامة الشيخ أحمد عباس البيروتي وأمثاله، وهي هي نفس المدرسة التي يشرف على إدارتها الآن الأستاذ عارف النكدي مدير العدلية في الدولة السورية بما اشتهر به من الدراية والأمانة وعلو الهمة.

ثم نقول: إنه كان لازدياد عدد الجرائد متساوقًا مع ازدياد عدد المدارس، فظهرت في بيروت بعد الجرائد المتقدم ذكرها جريدة لسان الحال لصاحبها خليل سركيس، وجريدة المتقدم التي كان يتولى تحريرها أديب إسحاق الكاتب المشهور في وقته، وجريدة المصباح التي أنشأها المطران يوسف الدبس مؤسس مدرسة الحكمة، وعهد بإدارتها وتحريرها إلى نقولا أفندي النقاش من أعضاء مجلس الأمة العثماني، وإلى بولس زين من أدباء الموارنة. وكانت مجلة المقتطف قد صدرت في بيروت لصاحبيها العلامتين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر، ومن أول نشأتها كانت مجلة راقية حافلة بالفوائد العلمية والصناعية والتاريخية واللغوية.

ومما لا جدال فيه أن للمقتطف أثرًا بليغًا في عموم النهضة العربية، ولا ينكره إلا كل مكابر، ومن مساعي العلامتين الشهيرين صروف ونمر تأسيس مجمع علمي في بيروت سموه المجمع العلمي الشرقي، قد ضم نخبة العلماء والأدباء الذين كان يُشار إليهم بالبنان في ذلك الوقت، ولم يكن هذا المجمع أول مجمع علمي في بيروت، بل قد سبقه جمعية علمية تأسست قبل ذلك بنحو من عشرين سنة، كان رئيسها الأمير محمد الأمين أرسلان، وكان من أعضائها: الشيخ يوسف الأسير، والشيخ إبراهيم الأحدب، والشيخ ناصيف اليازجي، والمعلم بطرس البستاني صاحب دائرة المعارف، والسيد حسين بيهم، وسليم أفندي رمضان، وغيرهم من علماء ذلك الوقت وأدبائه.

وفي نواحي سنة ١٨٨٤ فيما أتذكر كان الشيخ عبد المجيد الخاني الأديب الدمشقي البارع جاء إلى بيروت، فذكر ما رآه فيها من الرقي الفكري، وسرد أسماء جرائدها نظمًا، فقال:

ثمرات مقتطف الجنان بشيرها   بلسان مصباح التقدم قائل
ظل المعارف وارف في أرض بيـ   ـروت ورهط الفضل فيها قائل

ثم أنشأ علي بك ناصر الدين مجلة اسمها الصفاء صارت فيما بعد جريدة سياسية ولا تزال إلى هذا اليوم، قائمة حق القيام بخدمة العلم والأدب، وقد كان لي فيها أول

مقابلة صدرت من قلمي وذلك سنة ١٨٨٥، وأصدر عبد القادر أفندي الدنا جريدة باسم بيروت كان يكتب فيها الأستاذ البليغ السيد مرتضى الجزائري ابن أخي المغفور له الأمير عبد القادر.

ثمانون جريدة في سوسيا

ولكن عدد الجرائد لم يزدد هذا الازدياد الرائع إلا بعد إعلان الدستور العثماني، ومن قبله صدرت جريدة طرابلس التي كان ينشئها الشيخ حسين الجسر، ولم يكن جريدة سواها تصدر في غير بيروت من مدن سورية إلا أنه لما أُعلِن الدستور العثماني، وتقررت حرية الصحافة أخذت الجرائد تنتشر بسرعة عظيمة، فلما نشبت الحرب الكبرى كان يُنشَر في سورية وفلسطين ثمانون جريدة موزعة بين بيروت ولبنان ودمشق وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب وصيدا وحيفا ويافا والقدس. وكانت تظهر في هذه البلاد مجلات شهرية وأسبوعية لا تقل عن بضع عشرة مجلة، ولا نجد لزومًا لسرد أسماء جميع هذه الجرائد وهذه المجلات. وهذا أول دليل على سرعة الرقي العلمي في سوريا، وليس في الكلام أفصح من الأرقام، فوفرة الجرائد دليل على وفرة عدد القراء، ووفرة عدد القراء دليل على صدق عمل المدارس. نعم؛ إنه لا يزال عدد الأميين كثيرًا في هذه البلاد، وربما بلغ مع الأسف ٦٠ بالمائة، ولكن المظنون بحسب ما نراه من إقبال الأهلين على تعليم أبنائهم أنه لا يمضي عشر سنوات حتى ينزل عدد الأميين إلى ٢٠ بالمائة، وقد كان في بيروت بضع عشرة مطبعة فتضاعف هذا العدد مرتين وثلاثًا، وتأسست مطابع كثيرة في سائر المدن السورية.

وليس عمل هذه المطابع كله منحصرًا في طبع الجرائد، بل هي تقوم بطبع الكتب التي لا تُطبَع إلا إذا كان أصحاب المطابع يجدون لها عددًا كافيًا من المشترين، وإن مكانة الصحافة الآن في سوريا ولبنان بالقياس إلى عدد أهلها لا تقل عن مكانة الصحافة في أوروبة، فأما في مصر فمما لا شك فيه أن الصحافة أرقى منها في سوريا؛ لأن ثروة مصر أعظم من ثروة سوريا بكثير. وقد كان في أثناء ثورة عرابي باشا — أي سنة ١٨٨٢ — يصدر في مصر بضع جرائد لا غير، منها: الأهرام واللطائف والمفيد وغيرها. فما زال عدد الجرائد يرتقي إلى أن تضاعف مرارًا، وإن بعض جرائدها اليومية تصدر بثماني صفحات أو ست عشرة صفحة، ومنها جرائد مصورة كثيرة، وربما تطبع الواحدة من جرائد مصر الكبرى من ٣٠ إلى ٤٠ ألف نسخة، وقد أكد لي أحد الإخباريين الأوروبيين الذين يراسلون الأهرام من أمهات الجرائد المصرية أن هذه الجريدة لو وُضِعت في جانب صحف باريس في الإتقان، وسعة النفقات، وكثرة القراء، لكانت معادلة لأحسنها.

ولما كانت الأمثال أحسن مظهر لحقائق الأشياء، وأبلغ مؤثر في النفوس رأيت الآن إيراد مثال وقع معي، وكنت قد ذكرته في مجلة المقتطف، ومنه يتبين الفرق الهائل بين حالة الصحافة في مصر منذ ٤٠ سنة، وحالتها منذ عشرين سنة.

قلت في المقتطف: إنني كنت زرت مصر سنة ١٨٩٠ وكنا نجتمع في مجلس الإمام الشيخ محمد عبده، وأكثر ما كنا نسمر عند سعد باشا زغلول، وهو يومئذ سعد أفندي زغلول، وكان من المحامين المشهورين بمصر، وكان ينتاب تلك الحلقة شيخ شخت الخلقة اسمه الشيخ علي يوسف إذا أتى جلس في آخر المجلس، ولبث أكثر المجلس ساكنًا مستمعًا تكاد ترثي له لضعفه ولمسكنته. وكان قد بدأ بإصدار جريدة اسمها المؤيد كانت تظهر مرتين بالأسبوع، وهو يعجز أن يجعلها يومية إلا أن هذا الرجل على ضئولة جسمه كانت بادية عليه سيماء الهمة والعزم، فزرته مرة في مطبعة المؤيد فرأيته جالسًا على مقعد رث لا يسع أكثر من ثلاثة جلوس بعضهم ملزوز إلى بعض، وأمامه منضدة بدون غطاء عليها من بقع الحبر ما يهول الناظر وهو يعالج تحرير مقالته في دخول العام الهجري الجديد حينئذ، ولا يعرف كيف يصوغها، وكانت بجانب تلك الغرفة غرفة ثانية فيها المطبعة، وبين الغرفتين باب مفتوح وأنا من مكان جلوسي أرى منضدى الحروف من خلال ذلك الباب يصفون الحروف، ثم إني رأيت الشيخ عليًّا في تعب زائد مع مقالته هذه عن الحول الجديد، وهو يكتب ويطلس ويمحو ويثبت، فقلت له: لو قلت كذا وكذا … فأجابني: بالله عليك تكتب أنت هذه الافتتاحية. فكتبتها أمامه، هذا وبعد ٢٠ سنة من ذلك العهد جئت إلى مصر.

المؤيد تطبع ٣٠ ألف عدد

وأنا ذاهب إلى حرب طرابلس فماذا وجدت؟ وجدت جريدة المؤيد من أعظم الجرائد اليومية في مصر تطبع كل يوم من ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسخة، ووجدت إدارة المؤيد تكاد تكون قصرًا من قصور الأمراء فيها الزراة المبثوثة، والطنافس الحريرية الفاخرة بدلًا من ذلك المقعد الحقير عليه الغطاء القديم من الشيت بدون حشوة، ووجدت مطبعة بخارية من أكبر المطابع كان صاحب المؤيد اشتراها بخمسة آلاف جنيه، مع أن تلك المطبعة القديمة التي رأيتها من قبل ما كانت لتساوي ١٠٠ جنيه.

ثم وجدت الشيخ علي يوسف نفسه من أكتب كُتاب مصر وأسيلهم قلمًا، فضلًا عن أني وجدته من عيون أعيان مصر وأشهرهم ذكرًا، ولم يغفل الشيخ عن أن يُذكرني

بزيارتي الأولى عندما كان على تلك الحالة الرثة، وأن يقابل بها حالة الترف التي رأيته عليها يوم زيارتي الثانية، فهذا المثال البارز كافٍ لقياس درجة الرقي الفكري في الشرق.[١]

انتشار الصحافة في العالم الإسلامي

ولقد كانت الصحافة العربية فيما مضى منحصرة في القطرين المصري والشامي، فصارت الآن منبثة في جميع الأقطار العربية، ففي العراق بضع عشرة جريدة ومجلة منها ما هو في بغداد، ومنها ما هو في البصرة، وكذلك ظهرت جرائد في الحجاز قد كان أولها جريدة القبلة في زمن الملك حسين، ولما استولى ابن سعود على الحجاز استبدل بها أم القرى، ثم ظهرت جريدة اسمها صوت الحجاز في مكة، وجريدة ومجلة في المدينة المنورة، وصدرت جريدة الإيمان للحكومة اليمانية في صنعاء، وصدرت جرائد عربية وراء البحار أشهرها جريدة حضرموت في جاوة، كما أنه يوجد في الهند مجلة عربية اسمها الضياء للأستاذ مسعود الندوي.

أما في المهجر فإن للعرب نحوًا من ٣٠ جريدة ومجلة، منها ما هو في أمريكا الشمالية، وما هو في أمريكا الجنوبية. وفي المهاجر العربية هناك من الكتاب والشعراء والأدباء والأطباء والفلاسفة نفر تفخر بهم أوطانهم، وهم جزء متمم للعالم العربي الأدبي لا يتم إلا بهم وإني أشبه الجاليات العربية في وسط هاتيك الأمم الأجنبية التي تُحصَى بمئات الملايين بجزائر عربية صغيرة في أوقيانوس من العجمة لا نهاية له، وقد احتفظت مع ذلك هذه الجزائر الصغيرة بلغتها العربية وآدابها وأذواقها ومنازعها ومشاربها. وهذا لعمري برهان الآصالة والنبالة وعلو الهمة، فإن الذي يخجل بوطنه وقومه ليس بإنسان. وفي نيويورك شارع كبير خاص بالعرب نجد فيه فوق أبواب المخازن العناوين العربية فوق الإنكليزية، وتنظر المطاعم العربية التي تطهو من المآكل الشرقية المتنوعة ما يكون قد درس بتمامه في البلاد العربية الأصلية.

وإنك لتسمع الموسيقى العربية ثمة كيفما توجهت سواء من المغنين أو من الآلات الحاكية، وإذا نظرت إلى النوافذ، وجدت فيها الأصص من الفخار فيها الرياحين، وأكثرها

[١] لا حاجة بنا الآن إلى سرد أسماء الجرائد المصرية الكثيرة، ولا إلى سرد أسماء الجرائد السورية الصادرة في دمشق وحلب وبيروت وفلسطين، ولا إلى ذكر المجلات الشهيرة كالمقتطف والهلال والرسالة، وأمثالها. فإن الأعلام الشهيرة لا تُعرَّف ولا تحتاج إلى تعريف.

من الحبق الذي يقال له: الريحان في دمشق وفي لبنان الحبق. ويظهر أن العرب يأخذون هذه الريحانة أينما ذهبوا في الأرض، فإني قد وجدتها بكثرة في إسبانيا، وهي حافظة أضمها العربي فيقول لها الإسبانيول: «هبقة» أي حبقة، ومن غرائب ما سمعته عن اعتصام السوريين بعاداتهم القومية وهم في المهجر أن كثيرين منهم يسكنون في حارات على حدة، وربما بنوا قرى منفردة لأنفسهم؛ وذلك ليكونوا أحرارًا في ممارسة عاداتهم التي كانت لهم في بلادهم الأصلية، فإذا حصلت أعراس عندهم حسبتها واقعة في نفس سوريا بما فيها من الأغاريد والأناشيد والزغاريد وما يقال له في لبنان: «التراويد». وقد حضرت في نيويورك عرس فوزي بك البريدي من زحلة، وقد اجتمع فيه أبناء العرب فخلت نفسي في زحلة أو في أية بلدة من لبنان. وكذلك قيل لي: إنهم في الأماكن التي يسكن فيها السوريون على حدة يمارسون عاداتهم الأصلية بالمآتم فتندب النساء من جهة حول الميت، ويندب الرجال من جهة أخرى، وهم يذهبون ويجيئون وبأيديهم المناديل يهزونها في الهواء، وهي ما كان العرب يقولون له: المآلي. واحدة مئلاة، إلا أن بقاء هذه الحالة عند السوريين المهاجرين لا يعدو العصر الحاضر لأن أعقابهم مع الأسف ذائبون إلا ما ندر في الجنسية الأمريكية، وقلما رأينا من ذراريهم المولودين في أمريكا من يعرف اللغة العربية لا سيما الذين أمهاتهم من هناك. وقد عالج بعضهم هذه الحالة وحاولوا استبقاء اللغة العربية بين المولودين في أمريكا من أبنائهم، وفتحوا مكاتب وكتاتيب علمت بوجود اثنين منها في ديترويت مشيغن وحدثوني عن غيرهما، ولكن هذا العوز لا ينسد مع الأسف ببضعة كتاتيب، فالسوريون الذين في أمريكا الشمالية يزيدون على ٢٠٠ ألف نسمة، وهم في الأمريكتين جميعًا أكثر من نصف مليون.

وقد قيل لي: إن أعلى المهاجرين العرب همًا من جهة الاحتفاظ بلغتهم هم مهاجرو العرب في البرازيل الذين عندهم مجلات راقية وجرائد مفيدة، كما يوجد مثل ذلك في نيويورك، ولم يقتصروا في البرازيل على بعض الكتاتيب لاستبقاء عروبة أبنائهم، بل أسسوا هناك لهذا الغرض مدارس عالية، يدرس الطلبة فيها العربية الفصحى في جانب اللغة البرتغالية التي يتكلم بها أهل البرازيل، أما إذا بقيت أبواب المهاجرة مسدودة على العرب في أمريكا الشمالية فلا تمضي عليهم هناك أكثر من نصف قرن حتى ينقرض منها مع الأسف كل شيء أصله عربي، ويصير وجود العرب في تلك القارة خبرًا من الأخبار التاريخية.

الصحافة العربية في شمالي إفريقية

ولنعد إلى حديث الصحافة العربية الذي كنا في صدده، فنقول: إن شمالي إفريقية قد نهض في العصر الحاضر نهضة أكيدة، وكثرت فيه الجرائد العربية والمطابع وسائر أدوات النشر التي تعول عليها كل أمة ناهضة، ولم يكن في بادئ الأمر بغير تونس جرائد عربية مغربية، وقد تقدم ذكرنا لجريدة الرائد التونسي التي كانت تصدر فيما أذكر من قبل احتلال فرنسا لتونس أي منذ ستين سنة. وبعد ذلك صدرت في تونس جرائد أخرى، وفي يومنا هذا تصدر في تونس عدة جرائد ومجلات راقية؛ كالزهرة والنهضة والصواب والمجلة الزيتونية وغيرها.

وأما الجزائر فقد كانت تصدر فيها منذ خمسين سنة جريدة عربية واحدة اسمها المبشر، وأظنها كانت الجريدة الرسمية للحكومة إلا أن الأهالي منذ بضع عشرة سنة نشروا جرائد متعددة في مدينة الجزائر، وفي قسنطنية أتذكر منها «البلاغ» «ووادي تراب»، وأما اليوم فمن أشهرها جريدة البصائر ومجلة الشهاب، ولم يقتصر إخواننا التوانسة والجزائريون على نشر أفكارهم في الصحف العربية التي أصدروها، بل لأجل إمكان تفاهمهم مع الفرنسيس المحتلين لبلادهم وللمطالبة بحقوقهم عمدوا إلى نشر جرائد وطنية عربية إسلامية باللغة الفرنسية، وذلك على نسق مجلتنا العربية المنهج الإفرنسية الملهج لأناسيون آراب،[٢] ومثل ذلك وقع في المغرب الأقصى الذي كانت السلطة مانعة فيه الأهالي الوطنيين من نشر الجرائد بتاتًا، خلافًا للأجانب الذين كانوا ولا يزالون يُؤذَن لهم في ذلك، بل كان محظورًا إدخال الجرائد العربية الصادرة في البلاد الأخرى إلى المغرب، وربما عُوقِب من وُجِد قارئًا لجريدة كهذه، إلا أن الأهالي لم يزالوا يعترضون على السلطة من أجل هذا الضغط الشديد على حرية القراءة في بلادهم حتى سمحت من سنوات لبعض الأدباء بإصدار مجلة علمية في الرباط اسمها المغرب، أذنت لها في الظهور على شرط أن تكون موالية للحكومة، فاضطر الحزب الوطني في المغرب إلى إصدار مجلة أفرنسية في نفس باريز باسم المغرب Magreb جعلوا إدارتها بيد ضيف سوريا الحالي روبيرجان لونغة[٣] الذي هو وأبوه جاهدا كثيرًا في النضال عن المسلمين الذين تحت حكم فرنسا وفي

---

[٢] La nation arabe.

[٣] Robert Gean Longuet.

منحهم جميع الحريات التي لهم الحق فيها، فلما ظهرت مجلة مغرب، وأقبل شبان ذلك القطر العزيز ينشرون فيها، باللغة الإفرنسية من المقالات القيمة والآراء السديدة ما أحدث تأثيرًا عظيمًا في نفس باريس انتقمت السلطة من تلك المجلة بمنعها من دخول المغرب نفسه، فأصبحت في المقيم المقعد مع الوطنيين الذين كانت ترأسهم عصبة العمل القومي.

ومنذ سنتين تمكن السيد محمد بن الحسن الوزاني من زعماء النهضة الوطنية في المغرب من إصدار جريدة في فاس باللغة الفرنسية سماها بعمل الشعب[٤] وجعل مديرها إفرنسيًّا حتى لا تتمكن السلطة من تعطيلها، فلما ظهرت هذه الجريدة وأخذت تناضل عن حقوق الأهلين وتناقش بشدة الصحف الفرنسية الصادرة هناك، أمرت السلطة بتعطيل هذه الجريدة خلافًا للقانون، فبقي أهل المغرب يئنون من هذا الضغط إلى أن تولت فرنسا ولله الحمد، الوزارة الشعبية في السنة الماضية فراجعتها عصبة العمل القومي في موضوع حرية الاجتماع والكتابة، وما زالت المراجعات مستمرة بإصرار إلى أن أذنت السلطة لعصبة العمل القومي بإصدار جريدتين إحداهما بالعربية اسمها الأطلس يتولى تحريرها السيد محمد اليزيدي، وأخرى بالإفرنسية اسمها العمل الشعبي[٥] يحررها السيدان أحمد بلافريج وعمر عبد الجليل من زعماء الحركة الوطنية المغربية، وصدرت أيضًا جريدة عمل الشعب للسيد محمد بن الحسن الوزاني، وجريدة أخرى بالعربية يقال لها: الوداد.

كما أنه صدرت في تطوان من المنطقة التي يحتلها الإسبانيول جريدة الريف وجريدة الحرية لحزب الإصلاح الوطني وجريدة الوحدة المغربية للمكي الناصري، ومن قبل كانت جريدة الحياة للسيد عبد الخالق الطوريس ومجلة السلاح للسيد محمد داود. وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية، وفي الوقت الحاضر توجد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي، ولكن الطرابلسيين يقرءون الجرائد العربية التي ترد عليهم من الشرق والغرب بلذة زائدة، ولا عجب فإن علاقاتهم من جهة الشرق مع مصر والشام ومن جهة الغرب مع تونس هي علاقات أقطار شقيقة، وفي زنجبار من شرقي إفريقية مطبعة سلطانية من قديم الزمن، اطلعنا على كتب مطبوعة فيها، ومؤخرًا وصلت إلينا جريدة عربية صادرة في جريدة زنجبار هذه.

---

[٤] L’action du peuple.

[٥] L’action Populaire.

فهذه هي لمحة دالة عن الصحافة العربية في الخمسين من السنين الأخيرة لا نزعم فيها الإحاطة، وإنما نجتزئ بالإشارة التي تعطي القارئ صورة صحيحة عن هذا البحث، وبالجملة فالصحافة العربية كانت من أعظم عوامل نهضة العرب ولا تزال تتقدم إلى الأمام.

المدارس في العالم العربي

إن الجرائد ليست وحدها هي المقياس الكافي لأجل إعطاء صورة صحيحة عن درجة الرقي، بل المقياس الأكبر هو المدارس، فمدينة بيروت مثلًا وعدد سكانها نحو من ٢٠٠ ألف نسمة فيها من المدارس والجامعات ما لو قرنته بجامعات أوروبا ومدارسها لم تكن قاصرة عنها، وربما كانت زائدة عليها إذا رُوعِيَت نسبة عدد السكان، وقد كنت منذ ٢٥ سنة في مدينة نابلس التي لم يكن أهلها يزيدون على ٢٥ ألف نسمة، فبحثت عن عدد المتعلمين في هذه البلدة فكانوا ٢٠٠٠ من الأحداث في المكاتب الأميرية، وأحصينا عدد طلاب المدارس العالية في الآستانة فبلغوا مائة شاب، فإذا نظرنا إلى عدد أهالي نابلس وجدنا عدد طلاب العلم من أهلها لا يقل عما يجب أن يكون في أية بلاد راقية، وليس هذا المثال وحيدًا في بابه، بل له أمثلة كثيرة في سوريا وإن كنت لا أزال أتأسف من بقاء الأمية في البلاد إلى هذا الوقت أكثر مما كنت أظن، وذلك بغلبة البوادي والقرى المفتقرة إلى التعليم.

ولم يكن هذا كله من تقصير الحكومة وفقد إرادة العمل، وإنما للميزانية المالية العمومية دخل في نزول درجة التعليم عما يجب أن تكون. ومن الغريب أن الأمية في مصر لا تزال أكثر منها في سوريا بالرغم من أن بين القطرين بونًا شاسعًا في درجة الثروة، أما تقدم التعليم في سائر البلاد العربية فأكثر ما برز منه للعيان بمدة قصيرة هو في المملكة العراقية لا سيما بعد أن حصلت على استقلالها، فإنه في وقت قصير أُنشِئت في العراق عدة مدارس عالية؛ كدار المعلمين في بغداد والموصل، ومدرسة الطب الثانوية المركزية، وعدة مدارس ثانوية متوسطة، وعدد لا يُحصَى من المدارس الابتدائية.

وفي العراق المدارس المسماة رياض الأطفال كثيرة وهي أرقى من أمثالها في سوريا، والفضل يرجع في إتقان هذه الرياض إلى المربي العربي الكبير الأستاذ ساطع الحُصري،

ثم قد بلغني أن الكتبية من القاهرة وغيرها يصدرون كل سنة مقادير جسيمة من الكتب المدرسية وغيرها إلى العراق، وأن هذا يزداد عامًا فعامًا.

أما في سوريا فجامعتها العلمية تتألف من كلية الطب وكلية الحقوق والمدرسة التجهيزية الكبرى للبنين، ومن فروعها دار المعلمين الابتدائية والعالية، ومدرسة تجهيزية أخرى للبنات وفيها دار للمعلمات أيضًا، ومدارس ابتدائية كثيرة وفي حلب مدرسة تجهيزية، ومثلها في دير الزور، ومثلها في حماة وأخرى في حمص، ولو كانت الميزانية المالية كافية لقطعت سوريا في أقصر وقت أبعد مرحلة في طريق التعليم، وهذا ما نأمل الوصول إليه في غير بعيد من الزمن ولا سيما بعد أن نالت البلاد استقلالها فإنه لا يُرجَى نهضة علمية إلا بنهضة سياسية، فهاتان توأمان دائمًا. وقد بلغني من وزير المعارف الدكتور الكيالي أنه لما ضاقت مكاتب الحكومة في هذه السنة عن استيعاب جميع الأولاد الذين يريد أهلوهم إدخالهم فيها، أوصى الوزير مديري المدارس الابتدائية بتسجيل جميع من يريد الدخول فيها، كما أوصى مديري الكتاتيب الأهلية الحرة بأن يقبلوا كل من يأتيهم على أن تؤدي إليهم الحكومة النفقات اللازمة؛ فيقظة الأمة ولا سيما بعد استقلالها الحديث غير محتاجة إلى استدلال.

المجمع العلمي في دمشق ومصر

ولا يجوز لنا أن ننسى ذكر مجمعنا العلمي هذا الذي كان أول مجمع على نسق أكاديميات أوروبا في الأقطار الشرقية، فإنه يضم نيفًا ومائة عالم شرقي ومستشرق كلهم من ذوي الشهرة الطائرة سواء في الغرب أو في الشرق، وللمجمع مجلة علمية من أرقى ما صدر من المجلات في العربية وأدقها بحثًا وأحسنا أسلوبًا وأجمعها للنوادر وأحفلها بالفوائد، ولا يستغني متخصص في العربية إذا أراد جد الاطلاع عليها عن اقتناء مجموعة هذه المجلة منذ صدورها. وقد سبقت سوريا مصرًا في تأسيس هذا المجمع، ولكن مصر عادت فسدت هذا العوز بتأسيس مجمعها الحالي؛ فكلا المجمعين الشقيقين يخدم هذه اللغة الشريفة وثقافتها بكل ما أُوتِي من قوة ووسائل. ولنا الأمل بأن يسير المجمعان معًا إلى الأمام خطوات واسعة، وأن حكومتي القطرين تشد أزرهما بالمال إلى الحد الذي يمكنهما من القيام بخدمات جلى للعربية والعروبة، كما هو الشأن في أكاديميات الممالك الأوروبية، فإن أمام العرب مهمات عظيمة في إثارة دفائن عقولهم وكشف دارس مدنيتهم والتنقيب عن دقائق تاريخهم، لا يقوم بها إلا هذه المجامع العلمية التي هي أيضًا لا تقوم إلا بتوفير أقساطها من الميزانية المالية، ولست متعرضًا الآن إلى الكلام عما قام به المجمعان الشامي والمصري من الخدمة اللغوية بإيجاد الألفاظ التي تقتضيها حاجة العصر، وإحياء ما وُجِد منها في لغتنا بتطبيقه على المعاني المناسبة له، فإن من شاء أن يعرف طائلًا من هذا الأمر يقدر أن يراجع مجلات هذين المجمعين.

وإنا نكون غفلنا عن الحق وأهملناه جانبًا إذا كنا لا نقول أنه في القرون الأخيرة لولا بقاء الأزهر والأموي والزيتونة والقرويين لم يكن بقى أثر من آثار اللغة العربية، فضلًا عن الشريعة الإسلامية. فهذه المساجد الأربعة هي التي في الدرجة الأولى قد وَقَتْ هذه اللغة من الدثور، وهذه الشريعة من البوار. وقد كانت الفوضى في القرون الأخيرة المذكورة قد

نسفت عمران هذه البلدان إلا بقايا تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وتسلط على هذه القطار ولاة أتوا على الحرث والنسل، وهدموا كل شيء وطمسوا كل رسم، ومع هذا فقد بقيت هذه المساجد الأربعة بنوع خاص مع مساجد أخرى، كانت تجري مجراها تقيم العربية على أركان، وتصد غارات الجهل عليها وعلى الشريعة بقدر الإمكان، فكيف تثبت هذه العربية وهذه الشريعة في وسط هذا الزوال؟! وكيف بقيتا في بهرة هذا الفناء مدة تزيد على أربعة أو خمسة قرون تعاور العالم الإسلامي فيها الانهيار من كل جانب؟! إن هذا لعجب عجاب!

ولا شك أن ثبات الشريعة واللغة في وجه هذه الصدمات السياسية التي تدكدك الجبال هو الدليل الكافي على متانة أصولهما، ورسوخ قواعدهما وغزارة القوة الحيوية التي فيهما. وفي مصر عدا الأزهر معاهد كثيرة للعلم؛ مثل: الجامعة المصرية، ومدرسة القضاء الشرعي، ومدارس الحقوق والهندسة والزراعة. مما لا يتيسر لي استقصاؤه الآن، وإنما أشير إلى نتائجه الباهرة، فإنه لا يكابر مكابر في أن الحركة السياسية الأخيرة التي جرت في مصر في الشتاء الماضي، وانتهت باستقلالها بالرغم من معارضات الإنكليز تحت مختلف العلل، إنما كانت ثمرة هذه المدارس؛ لأن الذين تولوا هذا الأمر هم العشرة الآلاف طالب الذين ثاروا في القاهرة ثورة الرجل الواحد وتنجزوا الاستقلال التام لوطنهم تنجز المستميت، باذلين من دونه دماءهم بذل السخي لماله.

أثر الزيتونة والقرويين والأموي

وكما قام الأزهر بالواجب الذي عليه في مصر، وكان أشبه بالصخرة العالية التي كانت تتكسر عليها أمواج الجهل والفوضى، وكذلك كان جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في فاس والجامع الأموي في دمشق ومنها ومن المساجد الأخرى خرج العلماء الأعلام، والمصابيح الذين أناروا الإسلام في دياجي ذلك الظلام، ومن هؤلاء أيضًا خرج أولئك العلماء الوطنيون الذين أرادوا إدخال العلوم العصرية في البلاد والتحقق بمعارف الأوروبيين حتى لا يبقى الشرق مقصرًا عن الغرب، فكانت الجامعات والمدارس العصرية الكثيرة، وكان إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا من أيام محمد علي إلى اليوم.

النهضة العلمية والدعوة الوهابية

ولا يظن ظان أن الحركة التعليمية في جزيرة العرب قد بقيت كما كانت من ذي قبل، فأما في نجد والحجاز فلا يخفى أن الدعوة الوهابية توجب حمل جميع الناس على التعليم بدون استثناء، وهو عندهم بمقام الجهاد، فترى المعلمين والفقهاء يجوبون الحواضر والبوادي ويفتحون الكتاتيب للأحداث وربما شرقت قبائل من العرب وغربت والمعلمون معها حتى لا ينقطع التعليم بالرحيل، فالأمية في البلاد الخاضعة لسلطان ابن سعود ستكون نادرة، ولكن يعترض بعضهم قائلًا:

> إن هذا التعليم النجدي لا يساعد الرقي المدني، بل هو من النمط القديم الجامد الذي ليس فيه كبير جداء لأهل هذا العصر، وهذا القول مردود من وجوه؛ أولًا: أن النجديين يلتزمون تعميم القراءة والكتابة في البدو والحضر؛ فزوال الأمية هو بنفسه درجة عالية من العلم، ثم إنهم يُحفظون الأحداث القرآن الكريم ويفسرونه لهم بعد رشدهم، وأي كتاب حث على العلم والتعليم والسير والنظر أكثر من القرآن؟! وأي كتاب قدَّس العلم والعلماء ونوه بالحكمة والحكماء أكثر من القرآن؟!

الإصلاح والعمران في المملكة السعودية

ثم إن منزع النجديين في الدين نزع إصلاح وترقية وتنقية، ومشربه بعيد بالمرة عن الخرافات؛ فهو مشرب إصلاحي مستحب جدًّا في العصر الحاضر، وإذا سألت الأوروبيين أنفسهم قالوا لك: إن مثل هذا المشرب هو الذي فك قيود الأفكار، وحل عُقَل العقول في أوروبا، وكان فاتحة عهد الارتقاء، وكثيرًا ما أطلق الأوروبيون على الوهابيين لقب

«بروتستان الإسلام»، ثم إن هذا الملك عبد العزيز بن سعود إمام الوهابيين القائم بتنفيذ مبادئهم لا يقف عن قبول أي علم نافع أو اختراع عصري مفيد؛ فهو يجهز مملكته بجميع طرق العمران الحديثة، وعنده التلغراف السلكي واللاسلكي في جميع بلاده، وعنده التليفون والراديو، وعنده السيارات الكهربائية تسير في طول البلاد وعرضها، حتى صارت تلك الأرض الشاسعة الواسعة تُطوَى طي السجل للكتاب. ومن أعمال ابن السعود اعتناؤه بالصحة العمومية وتعويله فيها على الوسائل العصرية الحديثة، وقد بدأ يستخدم الطيارات في الجيش، ولو كانت ميزانيته المالية تأذن له في الإنفاق كما يشاء لما سبقه في هذا الميدان سابق، ولكانت الأدوات العصرية في جيشه لا تقل عن مثلها في أي جيش أوروبي، ولكن المال قوام الأعمال، ثم إذا كان المراد من العلم والتعليم هو إيجاد الأمنة في السوابل فلا يكون في هذا المعنى أرقى من مملكة ابن سعود؛ لأن الأمن العام ضارب أطنابه في بلاده كلها وواصل إلى الدرجة التي يتحدث عنها المؤرخون في الكتب بعد أن كانت تلك الصحاري أشبه بمسبعة تزأر فيها الضواري من كل فج. وبالاختصار، فالوهابيون يقبلون كل إصلاح ما لم يصادم الدين، والعلم والدين لا يتصادمان في الحقيقة إلا عند من لم يحسن فهم كل منهما.

النهضة العلمية في اليمن

أما اليمن فإنه يضارع مملكة ابن السعود في أمرين: عموم التعليم، والأمن الشامل. فقد بلغني أنه لا يكاد يُوجَد في اليمن قرية تخلو من فقيه يعلم الأحداث القراءة والكتابة، وأنه لا توجد مدينة ولا قصبة في اليمن إلا فيها حلقات تدريس للعلوم اللغوية والشرعية؛ فالأمية في اليمن نادرة. نعم؛ لا يوجد هناك من يعتني بالعلوم العصرية إلا نادرًا، وهي علة قد تُزاح قريبًا؛ لأن العلوم الأدبية لا بد أن تثير حركة في الأفكار وتجعل نهضة في النفوس وهذه من شأنها أن تهتف بنشدان العلوم الطبيعية، وذلك كما جرى في مصر والشام وغيرهما.

هذا، وإمام اليمن يحيى بن محمد بن حميد الدين هو بنفسه عالم فاضل متبحر سيال القلم لا يغرب عنه شيء مما يجب لترقية بلاده؛ ولذلك نراه مهتمًّا بالمدرسة العسكرية التي في صنعاء، وعنده معمل سلاح صغير شاهدته بعيني أنا وزميلاي هاشم بك الأتاسي رئيس الجمهورية السورية، والحاج أمين الحسيني مفتي القدس الشريف ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، وعلمنا أن هذا المعمل يقدر أن يعمل البنادق وعلف البنادق كما يصنعونها في أوروبا.

ورأينا مصنوعات هذا المعمل عيانًا، ولنا الأمل بأن تتسع دائرة هذا المعمل، وأن يتأسس في البلاد العربية معامل أسلحة كثيرة تكون وافية بحاجات أهلها، ولا ننسى أن العراق والشام والمملكة السعودية هي في مقدمة الأقطار العربية التي تحتاج إلى مثل هذه المعامل؛ لأن على العرب واجبًا لا يجوز أن يغفلوا عنه طرفة عين، وهو أن لا يكونوا عيالًا على أوروبا في التسلح؛ فإنه إن أمكنهم ذلك في زمن الحرب استطاعوا أن يدفعوا الأخطار عن بلادهم. وخير للأرض أن تستغني بمائها عن مياه غيرها التي يجوز أن تنقطع عنها.

الشعر والشعراء

أما اللغة العربية من حيث هي، فقد طارت في هذه الخمسين سنة الأخيرة بجناحين، وصارت إلى جلالها الماضي وعنجهيتها القديمة، فكثر في السنين الأخيرة سواد الكتاب والشعراء حتى صاروا يُحصَون بالمئات إن لم يكن بالألوف، ونبغ منهم فحول يقدر الإنسان أن يلزهم في صفوف المنشئين والشعراء من أهل القرون الأولى للإسلام عندما كانت اللغة في إبان سورتها، فلا تنظر في جريدة إلا تجد فيها من النظم الفائق والترسل الرائق لشبان لم تسمع في عمرك بأسمائهم هذا، عدا المفلقين والعباقر الذين سارت بذكرهم الركبان وحفظ الرواة من شعرهم كما يحفظون شعر المتنبي وأبي تمام.

ولم يكن منذ خمسين سنة بمصر والشام والعراق والمغرب معشار العدد الذي نجده في يوم الناس هذا من هذه الطبقة الراقية في الأدب منذ خمسين سنة أو ستين سنة فما قبل، وكان إذا نبغ شاعر أو برع كاتب ضُرِب به المثل لتفرده وخلو الجو من حوله، والحال أنه لو نشرته اليوم من قبره، وعرضته في الجمع لوجدت أمثاله يعدون بالعشرات، وإن كانت لا تزال له طلاوة، فهذه الطلاوة لا ترتفع به إلى صفوف العبقريين، وإنما تجعله في صف المجيدين. وقد كنا في سوريا لا نعرف شاعرًا أحسن من قصيف اليازجي اللبناني الذي نبغ في بيروت وصارت له تلك الشهرة الطائرة باستحقاق، وهو لو وُجِد في زماننا هذا لما كان إلا واحدًا من جماعة.

وكان في بيروت من الشعراء المجيدين عمر الأنسي البيروتي، يقرأ الإنسان شعره بلذة، وكان قبل الأنسي واليازجي أمين الجندي وبطرس كرامة كلاهما من حمص ولهما قصائد كسبا بها شهرة لا تزال لهما إلى اليوم، ولو أنهما عاشا في هذا العصر لم تكن لهما هذه الشهرة بالرغم من إجادتهما وعلو طبقتهما. وقد سأل الأمير بشير الشهابي — أمير لبنان

في وقته — الشيخ أمين الجندي عن المعلم بطرس كرامة قائلًا له: ما نسبة المعلم بطرس إليك في الشعر؟ فأجابه: نسبة الثعلب إلى الأسد.

ولم يكن هذا الجواب صحيحًا؛ لأن لبطرس كرامة من الشعر لا سيما في الغزل والنسيب ما لا يقل رونقًا عن شعر الجندي، وكان في بغداد ثلاثة شعراء أو أربعة اشتهرت أسماؤهم في بلادنا؛ مثل: عبد الباقي العمري، وصالح التميمي، وعبد الحميد الموصلي، وعبد الغفار الأخرس. وكان أكثرهم شهرة عبد الباقي العمري وعبد الحميد الموصلي هنا بسبب مراسلاتهما مع نصيف اليازجي. كما أن شهرة صالح التميمي كانت بسبب المناقشة التي وقعت بينه وبين بطرس كرامة. وهذه الطبقة، وإن كانت تُعَد من الطبقة العالية في الأدب، فإن الذين جاءوا بعدها قد ردوها إلى الوراء، فبعد أن كانت من المجلين صارت من المصلين، اللهم إلا إذا حسبنا الشاعر الأرزي الذي لا يلز هؤلاء في قوته، ومن قبله ابن معتوق الذي كان يضارع الشعراء الأولين، وأما في مصر فما بدأ الشعر ينهض إلا بنبوغ محمود صفوت وبعده محمود سامي، وهو صاحب النهضة الشعرية الكبرى. وقد أجمع مؤرخو الأدب على أنه مجدد الشعر العربي في هذا العصر، وأنه الذي أعاد إليه ديباجته الأولى التي كانت القرون الأخيرة لا تعرف منها شيئًا. وما كان شوقي وحافظ وغيرهما من شعراء مصر إلا مبعوثين في عالم الأدب بأنفاس محمود سامي العالية، واليوم لا يكاد يُحصَى عدد المجيدين من شعراء مصر. وأغرب منه نبوغ شعراء في السودان لا يقل شعرهم في الإجادة عن شعراء الأقطار العربية الأخرى. وقد نبغ في تونس في القرن الماضي محمد قباد وهو صاحب تشطير «أفاطم لو شهدت ببطن خبت» الذي دخل فيه مدخلًا لا يفترق عن الأصل، والذي له قصائد أخرى جياد، وجاء بعده شعراء في تونس لم أعلم منهم أحدًا بلغ مداه، وقد هبت ريح الأدب في هذا العصر في أرجاء الجزائر والمغرب الأقصى، وظهر شعراء ومترسلون يمكن أن يضعهم القارئ في صعيد واحد مع شعراء الشرق، ومهما قيل في ترقي الشعراء في هذا العصر الأخير، فأعظم منه قد كان ترقي الكتابة التي لم تتقدم في فصاحة الألفاظ وتنقيح الجمل فقط، بل علت ببلاغتها وحسن أسلوبها وتشبعها بالمعاني الكثيرة التي أوجدتها الحركة العلمية الحديثة فأديل من الصناعة اللفظية، والسجع الرنان بالمسحة العلمية والإنشاء المرسل الملآن، وهذا النوع من الكتابة هو أصعب أنواعها لمن أراد أن يُسمَّى كاتبًا.

ولا نزاع في أن ترقي كل من فَنَّي الشعر والكتابة في الأدب العربي قد كان وليد النهضة العلمية العامة التي حملت المتأدبين على مراجعة أحسن ما كتب العرب وخلفوه

في زوايا المكاتب؛ فسمت الهمم بسبب هذه النهضة العلمية إلى طبع الكتب التي لا تزال مجهولة، أو مما ينحصر اقتناؤه في بيوت الأمراء والكبراء، فصارت هذه الكتب من مثل ترسل ابن المقفع والجاحظ وأمثالهما مشاعًا بين جميع عشاق الأدب. وكانوا كلما قرءوا كتب الأوروبيين شعروا بحاجة إلى مادة أغزر من اللغة العربية وأساليب أطلى وفنون أبدع ومجال أوسع، فكأن اللغات الأجنبية هي نفسها قد كانت الحافظ الأعظم على إتقان العرب المحدثين للغتهم، وارتوائهم من معينها، ولا عجب في ذلك فإن العلم يريد بعضه بعضًا؛ سنة الله في خلقه.

الفقه الإسلامي وعلماء الدين

هذا ما كان من جهة الأدب العربي، وأما من جهة الفقه الإسلامي فلا نقدر أن نقول أنه تقدم إلى الأمام بل رجع في الحقيقة إلى الوراء وذلك باستغناء الناس عنه بعلم الحقوق منذ ترجمت الدولة العثمانية هذا العلم عن قوانين أوروبا إلى التركية والعربية. ومن عادة الناس أن يكون أكثر انشغالهم بما ينفعهم في دنياهم، وليس كل العلم طراز مجالس. نحن أولًا قد أدركنا في أواخر القرن الماضي طبقة عالية من علماء العلوم الشرعية في دمشق؛ مثل: محمود أفندي الحمزاوي، والشيخ سليم العطار، والشيخ بكري العطار، والشيخ سعيد الأسطواني، والشيخ الطنطاوي، والشيخ علاء الدين عابدين، والشيخ محمد البيطار، وأخيه الشيخ عبد الرزاق البيطار، والشيخ طاهر الجزائري، والشيخ عبد الغني الميداني، والشيخ محمد الخاني، والشيخ جمال الدين القاسمي، وغيرهم. وكان الناس يستفتونهم في النوازل ويعولون على آرائهم في الدين والدنيا، فلما انتشرت العلوم العصرية ومنها القوانين الأوروبية المترجمة التي عملت الدولة بها صار إذا مات واحد من هؤلاء الفقهاء لا يخلفه غيره، وما زال الأمر كذلك إلى أن كادت هذه الطبقة تنقرض بالمرة، وكذلك كان في بيروت: الشيخ محيي الدين اليافي، والشيخ يوسف الأسير، والشيخ إبراهيم الأحدب. وفي طرابلس: الشيخ حسين الجسر، والشيخ محمود نشابة. فمات كل هؤلاء ولم يخلفهم أحد، وصار النبوغ للمحامين الذين تخرجوا في المدارس الأوروبية أو في مكاتب الدولة العثمانية، والمحامون بمصر أكثر منهم بالشام لما في مصر من استبحار العمران.

إلا أنه نظرًا لوجود الأزهر ومدرسة القضاء الشرعي في مصر بقي حملة العلوم الشرعية فيها أكثر منهم في سوريا، وكان الواجب على هذه الأمة في كل قطر أن لا تهمل هذا العلم الذي هو من مفاخر الثقافة العربية ومن محاسن تاريخها والذي لا يستغني عنه المسلمون في المعاملات الدنيوية فضلًا عن المسائل الاعتقادية.

الطب والأطباء والصيدلة

وأما الطب، فهو من العلوم التي يقوم عليها المشارقة أكثر من غيرهم ويُوفَّقون فيها، ومن الأطباء الشرقيين من يقيمون الآن في أوروبا ويشتهرون بالنبوغ بين أهلها، وقد كانت الدولة العثمانية من الدول الراقية في علم الطب حتى كان يقال إنها في الدرجة الخامسة بالنسبة إلى الدول الأخرى، وقد نبغ فيها عدد كبير من الأطباء الجراحين يُعَدون في الطبقات العليا بالنسبة إلى أطباء أوروبا وجراحيها أنفسهم؛ منهم أتراك ومنهم عرب ومنهم أروام ومنهم أرمن. ولا نقدر أن نقول أن سوريا متأخرة في حلبة الطب هذه عن غيرها، بل إني أتذكر أنه لما نشبت الحرب العامة، واحتاجت الدولة إلى أطباء لجيشها ساقت إلى الجيش ٢٠٠ طبيب ذي شهادة من جبل لبنان وحده وبقي عدد كبير منهم في البلاد. واليوم قد ازداد هذا العدد على ما كان من قبل، وبلغني أن في دمشق وحدها اليوم ١٥٠ طبيبًا، وأنا نرى خريجي مدارس الطب من السوريين يتعاطون صنعتهم هذه في مصر والعراق والسودان والحجاز وغيرها. وما يُقال في الطب يُقال في الصيدلة التي لها ممثلون كثيرون من أبناء سوريا، وكذلك بدأ كثير من الشبان يدرسون في أوروبا علم الجراثيم «البكتريولوجيا».

منافسة سوريا للبلاد العربية

وما من علم يَجِدُّ في أوروبا إلا أقبل عليه الشرقيون كما أقبل الغربيون وأخذوا منه بنصيب، فالمباراة إذن جارية بكل ما يمكن من الهمة، على أن سوريا في علم الطب وتوابعه هي ذات المركز الأول في البلدان العربية؛ وذلك لسبقها غيرها إلى ورود حياض العلوم الكونية، فلا مصر ولا العراق ولا جزيرة العرب ولا إيران ولا المغرب تضارع سوريا في هذا الموضوع. ولكن نحن على ثقة أن جميع البلاد العربية من الآن إلى ثلاثين وأربعين سنة تصير متساوية بعضها إلى بعض في درجة الرقي العلمي.

ومن العلوم التي يمتاز بها العرب، ولا سيما السوريون منهم، العلوم العددية. وقد نبغ الكثيرون ممن لا نقدر على إحصاء أسمائهم، نذكر منهم على سبيل التمثيل: الشيخ محمد الطيبي في دمشق، والمعلم بطرس البستاني، والمعلم أسعد الشدودي في بيروت، وغيرهم.

ولما كان السوريون من أقوم أمم الأرض على التجارة كان علم الحساب من العلوم التي يتخصصون بها بطبيعة الحال، وكذلك في مصر لا يُنكَر ترقي العلوم الرياضية التي مصر من مراكز ازدهارها، بل نقدر أن نقول أن المهندسين فيها أكثر منهم عددًا في سوريا؛ نظرًا لأن الزراعة في وادي النيل أرقي بكثير منها في سوريا.

بقي علينا أن ننظر كيف يكون اتجاه الأمة العربية في المستقبل من جهة الثقافة! أتأخذ بالثقافة الغربية ولوازمها ومتمماتها إلى النهاية، أم تبقى معتصمة بثقافتها الشرقية الأصلية لا تبغي بها بدلًا ولا عنها حِوَلًا، أم تأخذ من الثقافتين معًا وتجعل من ذلك ثقافة خاصة لا شرقية ولا غربية؟ هذا سؤال يَرِد كثيرًا على خواطر الباحثين، وكل منهم يذهب في الجواب مذهبًا. وأظن أن ثقافة العرب المستقبلة ستكون عصرية آخذة من التجدد بأوفى نصيب لكن مع الاحتفاظ التام بالطابع العربي، وهذه أشبه بما سبق للثقافة العربية

في زمن بني العباس وفي زمن بني أمية بالأندلس حينما نقل العرب حكمة اليونان إلى لغتهم واطلعوا على علوم فارس والهند، فجعلوا من هذه الثقافات الثلاث ومن الثقافة العربية الأصلية ثقافة جديدة عالية كانت أرقى ثقافة في القرون الوسطى، لكنها كانت زاهرة بطابعها العربي الذي لم يكن يفارقها بحال من الأحوال، وهكذا ستكون ثقافة العرب بعد اليوم لن تكون جامدة على القديم الذي ثبت للعرب المحدثين وجوب التعديل فيه والإضافة إليه، ولن تكون منسلخة من القديم جاحدة في التبرؤ منه على النحو الذي نحاه الأتراك الكماليون الغالبون على تركيا اليوم، ولكنها تكون ثقافة جامعة بين القديم والجديد مختارة من كل شيء أحسنه، مع بقاء الصبغة العربية التامة غير المفارقة للعرب، وذلك على النحو الذي نحاه اليابانيون الذين اقتبسوا جميع علوم الأوروبيين، ولم يغب عنهم منها شيء ولا فاتهم من صناعات أوروبا دقيق ولا جليل، ولبثوا مع ذلك يابانيين أصلاء في لغتهم وأدبهم وطربهم وطعامهم وشرابهم وجميع مناحي حياتهم. وحسب العرب قدوة للاقتداء ومثالًا للاحتذاء هذه الأمة اليابانية العظيمة التي لا يُوجَد أشد منها رجوعًا إلى قديم ولا أخذًا منها بحديث.

والآمال معقودة بأنه ستكون في الشرق الأدنى نهضة عربية علمية تضاهي النهضة العلمية التي رأيناها في الشرق الأقصى.

لماذا تأخر الشرق الأدنى عن الأقصى؟

وإن كان الشرق الأدنى قد تأخر عن الأقصى في درجة الرقي العصري فلم يكن ذلك كما يتوهم بعضهم من جمود الأمم الشرقية العربية، وتفوق اليابانيين عليهم في حب العلم ونشدان وسائل القوة، وإنما كان الموقع الجغرافي للبلاد العربية قد عرضها من هجوم الأجانب وغاراتهم المتوالية إلى ما لم يتعرض له اليابانيون بسبب تقاصي ديارهم وبُعْد مزارهم بحيث خلا لهم الجو وتمكنوا من أن يتعلموا ويتهذبوا آمنين على حوزتهم. وهذا فرق طالما غفل عنه الناس ولم يتفطنوا لأهميته، فحملوا بسبب غفلتهم عنه على الشريعة الإسلامية وجعلوها — ظلمًا وعدوانًا — هي المسئولة عن هذا التأخر والمسئول الحقيقي في الواقع هو الاعتداء الأجنبي المتواصل الذي يتيسر في الشرق الأدنى ما لا يتيسر في الشرق الأقصى. انتهى.

الصحافة في طرابلس الغرب

لما اطلع أحد أدباء طرابلس الغرب على محاضرة الأمير نشر في جريدة الجزيرة الكلمة الآتية:

مولاي المحترم، قرأت في عدد ١٥–٧٠٥ من مجلتكم الغراء جزءًا من المحاضرة التي ألقاها في قاعة المجمع العلمي الدمشقي أمير البيان عطوفة الأمير شكيب أرسلان باسم النهضة العربية العلمية، فوجدت ما نصه:

وأما في طرابلس الغرب فلم يكن أيام الدولة العثمانية غير جريدة الولاية الرسمية، وفي الوقت الحاضر تُوجَد جريدة للحكومة في طرابلس وأخرى في بنغازي.

مع أن الذي أعلمه يقينًا أن بطرابلس في العهد العثماني عدة جرائد؛ كالترقي والمرصاد والرقيب والعصر الحديد وأبو قشة — هزلية عربية — وتعميم حريت — هزلية تركية — ومنشأها من طرابلس، ومجلة باسم مجلة الفنون مصورة.

وفي العهد الإيطالي بطرابلس جريدة العدل والرقيب العتيد، وهي التي كان اسمها الرقيب في العهد العثماني، والذكرى.

وأما في بنغازي، فقد صدرت منذ نحو سنتين مجلة مصورة باسم «ليبيا المصورة» زيادة على جريدة باسم بريد برقة.

ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن جريدة الرقيب التي سُمِّيت في العهد الإيطالي بالرقيب العتيد كانت أرقى في العهد العثماني.

طرابلسي مغربي

جولة في مدارس اليمن

لما كان عطوفة الأمير شكيب قد تناول بحث المعارف في بلاد اليمن بصورة مجملة، ولما كان ناشر هذا الكتاب ومنشئ الجزيرة قد قام برحلة إلى تلك البلاد وطاف في مدارس صنعاء؛ فقد رأينا — إتمامًا للبحث — أن نضيف إلى محاضرة الأمير ما نشره منشئ الجزيرة عن جولته في مدارس اليمن:

> إن الذين يقولون بأن المدارس مفقودة في بلاد اليمن، يهرفون بما لا يعرفون؛ إذ يبلغ عدد المدارس في تلك الجهات نحو ٢٠٠ مدرسة بين مدارس صغيرة وكتاتيب، وكلها مرتبطة رأسًا بالحكومة، وبعضها مؤلف من ثلاثة صفوف وبعضها من أربعة.
>
> نعم؛ إن هذه المدارس لم تبلغ مستوى المدارس الحديثة في هذه البلاد بسبب فقدان الأساتذة الأكفاء، ولكن حركة بسيطة تقوم بها حكومة جلالة الإمام لا بد من أن تؤدي إلى تكوين نهضة ثقافية واسعة النطاق.
>
> وفوق ذلك فإن في صنعاء عدة مدارس كبرى، أذكر منها: المدرسة الحربية، ودار المعلمين، ومدرسة الأيتام، والمدرسة الزراعية، ومدارس الصناعة، ومدرسة الإصلاح، والكلية العلمية.
>
> والطلاب في جميع مدارس اليمن لا ينفقون على الدراسة، بل إن أكثرهم يأكل وينام ويلبس على حساب الحكومة، وهذه مأثرة خالدة نسجلها لجلالة الإمام.

وقد التمست من سمو وزير المعارف أن يسمح لي بزيارة مدارس صنعاء، فأذن لي بذلك، وأرفقني بالشيخ يحيى النهاري وكيل مديرية المعارف، وهو شاب يماني ذكي ونشيط.

مدرسة الأيتام

وقد بدأنا أولًا بزيارة مدرسة الأيتام التي تُعتَبَر من أرقى مدارس اليمن، وهي مؤلفة من سبعة صفوف، ستة منها ابتدائية، وواحدة ثانوي، وجلالة الإمام ينفق على هذه المدرسة من جيبه الخاص ويدخل في باب النفقات: الطعام واللباس والنوم وغير ذلك. ويبلغ عدد طلابهما ٣٠٠ طالب أكثرهم من الأيتام.

وقد استقبلنا مديرها الشيخ محمد تقي، وأخذ يطوف بنا على غرف التدريس، وقد فحصت بعض الطلاب وألقيت عليهم عدة أسئلة في التجويد والعلوم الدينية والحساب والجغرافيا والتاريخ والقواعد العربية، فوجدتهم — رغم رداءة طرق التدريس المتبعة عندهم — على جانب عظيم من الذكاء وحسن الاستعداد لتلقف أنواع العلوم.

بيد أنني أرى من واجبي إرضاءً لضميري وتنبيهًا لحكومة جلالة الإمام أن أدوِّن فيما يلي الملحوظات الآتية:

(١) إن الطلاب يحفظون دروسهم عن ظهر قلب دون أن يتدبروا معاني ما يحفظون.

(٢) بعض التلاميذ كانوا يجلسون على الأرض لعدم وجود مقاعد كافية.

(٣) يظهر أن العهد التركي ترك في المدارس بعض الاصطلاحات غير العربية، وقد رأيتها متداولة ومستعملة في المدرسة؛ نحو: يوقلمة «تفقد»، نوبتجي «مناوب»، فايدوس «فرصة». وقد نبهتُ مدير المدرسة إلى الكلمات العربية التي تقابل تلك المصطلحات الأعجمية فوعد باستعمالها.

(٤) لعل من أغرب ما شهدت في هذه المدرسة أن بعض التلاميذ كانوا مُقيَّدين بالسلاسل من أرجلهم، ولما استفسرت عن ذلك قيل إنهم يفرون كثيرًا، فلم يجدوا وسيلة لمنعهم من الفرار إلا عن طريق الأغلال! …

(٥) الطلاب كلهم يرتدون الألبسة العربية اليمانية، وهذا أمر لا نعترض عليه، ولكن لاحظت أن الطلاب عند أداء بعض التمارين الرياضية، ولا سيما عند استعمال المتوازيين والحلقات وغيرها يجدون صعوبة ومشقة، فحبذا لو يُعَد لهم لباس خاص مؤلف من سروال وقميص خصيصًا للألعاب الرياضية.

ومما أدهشني وأثلج صدري أن التلاميذ استقبلوني بالأناشيد الوطنية المعروفة في بلادنا، ولا سيما نشيد صليل الظبي وصرير القلم … إلخ.

وقد شعرت بقوة حناجرهم وعذوبة أصواتهم مع عدم انطباقها على القواعد الموسيقية الحديثة.

والخلاصة، فإن هذه المدرسة — رغم النقائص الموجودة فيها والمرجو تداركها حالًا — تُعتبَر من أعظم المؤسسات التعليمية في بلاد اليمن.

مدرسة الصنائع

ثم توجهنا بعد ذلك إلى مدرسة الصنائع، وزرنا بعض فروعها وأقسامها، ولا سيما معامل النسيج والصابون والسجاد. ويتولى إدارة شئون هذه المدرسة شاب مصري منتدب من قبل الحكومة المصرية اسمه عبد القادر علام، وقد أطلعني على خلاصة الأعمال التي قام بها والخطوات التي خطتها هذه المؤسسة الصناعية في مدة لا تزيد عن ثلاثة أشهر، ثم أراني الآلات والمكنات التي أُحضِرت حديثًا، وأكد لي أنه لو وجهت الحكومة العناية الكافية إلى تقاريره لاستطاع أن يؤمن عن طريق صنائع الطلاب فقط جميع حاجات اليمن من المنسوجات.

ثم زرنا معمل الصابون، وكان ينتج في اليوم الواحد ما لا يقل عن أربعة آلاف قطعة صابون، ويدير أعمال هذا المعمل رجل فلسطيني أصله من عكا، وقد سألت عن الزيت الذي يُصنَع منه هذا الصابون، فقيل لي إنه يُستخرَج من نبات غريب يظهر في اليمن، ويشبه الخروع في تأثيره.

ثم زرنا بعد ذلك معمل السجاد، وأُعجِبت بمصنوعات الطلاب من السجاد النفيس والأبسطة الجميلة.

المدرسة العلمية الكبرى

والمدرسة العلمية تُعتبَر أرقى المعاهد العلمية في اليمن، وهي تؤهل طلابها وخريجيها بعد نوال الإجازة: (١) لتولي أعمال القضاء. (٢) القيام بشئون التدريس في مدارس الحكومة. (٣) الاندماج في وظائف الحكومة الكبرى.

وعلمت أن أكثر العمال في الأقضية والنواحي متخرجون من هذه المدرسة. والطلاب فيها يأكلون وينامون ويلبسون على حساب الحكومة، وقد زرت غرف نومهم وقاعات التدريس والمطبخ الذي يُعَد الطعام، فألفيتها كلها على أتم ما يكون بالنسبة لهذه البلاد.

وهذه المدرسة تدرس مختلف العلوم الدينية والعربية، فهي تُعتَبر كالأزهر في مصر، ويبلغ عدد طلابها المائتين، وقد اختبرت بعضهم فوجدتهم متفهمين تمامًا لما يُلقَى عليهم من الدروس ومتبحرين في الشئون الدينية.

أما الدروس التي يتلقونها في هذه المدرسة، فهي: القرآن الحكيم، أصول الفقه، مصطلح الحديث، الحديث، علم الفرائض، تفسير القرآن، التصوف — ويسمونه علم الباطن — النحو والصرف، التوحيد، المعاني والبيان، المنطق، الإنشاء، المحفوظات، الأدب العربي، التاريخ الإسلامي، تاريخ الأئمة، تاريخ اليمن، الحساب، علم الأوقات والفلك.

والكتب التي يُعتمَد عليها في التدريس أكثرها من وضع علماء الزيدية، وبعضها مطبوع والبعض الآخر مخطوط، وهذه أهم الكتب التي يدرسها الطلاب في هذه المدرسة: التجويد «شرح الجزري»، مفتاح الفائض في علم الفرائض، متن الأزهار في فقه الأئمة الأطهار مع الشرح، ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل، متن الأساس في علم الكلام، تفسير الزمخشري، متن الغاية في أصول الفقه، متن التلخيص، ملحة الأعراب.

ويبلغ عدد الأساتذة في هذه المدرسة ١٥ أستاذًا، أذكر منهم حضرات:

- الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي — مدير المدرسة.
- السيد أحمد بن علي الكحلاني — رئيس المدرسين.
- السيد حسين بن محمد الكبسي.
- السيد أحمد بن عبد الله الكبسي.
- الشيخ الجمالي علي بن محمد فضة.
- الشيخ حسين بن يحيى الواسعي.
- السيد عبد العزيز بن علي بن إبراهيم.
- السيد علي بن محمد الشهيد.
- الشيخ محمد بن علي الشرفي.
- الشيخ علي بن هلال التبب.
- الحاج لطفي الفسيل.
- السيد عبد القادر بن عبد الله.

- الفقيه محمد مداعس.
- القاضي يحيى الآنسي.
- وحفاظ القرآن: السيد علي الطائفي، والفقيه حسين الغيثي، والفقيه علي الحيمي.

ملحوظة: ألقاب العلماء في اليمن: القاضي لمن تولى القضاء، أو كان والده قاضيًا، والسيد لمن ينتسب لسيدنا علي، والفقيه والشيخ لسائر العلماء.


هنداوي